مقدمة التحقيق

الحمد لله الذى أضحك وأبكى، والصلاة والسلام على النبى الخاتم الذى كان يمزح ولا يقول إلا حقًا .. وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد ..

فإن من أبرز المسميات التى أطلقت على عصرنا الذى نعيش فيه أنه: عصر التقنية، وعصر القلق ، وعصر الترويح.

ولا شك أن هذه المسميات ترتبط فيما بينها بعلاقة وثيقة، فالتقنيةُ تولَّدَ عنها القلق، وأصبح الترويح أحد أهم متطلبات عصر التقنية والقلق لما له من تأثير فى الحدِّ من المشاكل المترتبة على ذلك.

ومعلوم أن للإنسان جوانب مختلفة «روحٌ ، وعقلٌ ، وجسدٌ»، وله ميول متنوعة قد تدفعه إلى تغليب جانب أو أكثر على بقية الجوانب الأخرى، ولكن نتيجة للترابط بين جوانب الإنسان المختلفة نجده يَكَلُّ ويَمَلُّ، ويصعب عليه مواصلة المسير، بل قد يمتنع عليه ذلك ، وهنا يأتى دور الترويح لتحقيق التوازن بين تلك الجوانب ، لكى يبتعد الإنسان عن الكلل والملل، ويعاود المسير براحة وطمأنينة.

وقد أسس الإسلام الحنيف حضارة قامت على التوازن، وقام علماؤه وأدباؤه ببيان هذه الميزة الحضارية من خلال نصوص الكتاب والسنة.

فالجاحظ الذى يعد بحق شيخًا للأدباء دافع عن غريزة الضحك والترويح عن النفس وبين آثاره وفوائده، وقرر أنه غريزة ذات قيمة للروح والجسد فقال:

«فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن

ينقطع عنه سببه؟. ولو كان الضحك قبيحًا من الضاحك وقبيحًا من المضحك، لما قيل للزهرة ، والحُلىِّ ، والقصر المبنى: «كأنه يضحك ضحكًا» ، وقد قال الله عزَّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم:٤٣-٤٤] فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص.

وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيمًا، ومن مصلحة الطباع كبيرًا ، وهو شيء في أصل الطبع، وفى أساس التركيب ؟. لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى، وبه تطيب نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذى هو عليه سروره ومادة قوته، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بـ«الضحاك» و«بسام» و«طلق». وقد ضحك النبى ﷺ ومزح ، وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مدحوا قالوا: هو ضحوك السن، وبسام العشيات، وإذا ذموا قالوا: هو حامض الوجه، وعبوس [1].

وقد تأثر الأستاذ أحمد أمين بالأديب الجاحظ على نحو ظاهر فى دعوته للضحك إذ نجده يقول: « إنَّ الطبيعة عوَّدتنا أن نجعل لكل باب مفتاحًا، ولكل كرب خلاصًا ، ولكل عقدة حلاً ، ولكل شدة فرجًا، فلما رأت الإنسان يُكْثِرُ من الهموم، ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب أوجدت لكل ذلك علاجًا فكان الضحك ، ولما وجدت الإنسان وحده هو المهموم المفحوم جعلته وحده الحيوان الضاحك.

إن انفجار الإنسان بضحكة يجرى فى عروقه الدم، فيحمر وجهه وتنتفخ عروقه، وفوق هذا فَلِلضَّحكة فعل سحرى فى شفاء النفوس ، وكشف الغم، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن، وإعداد الإنسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبِشْرِ والترحاب، ولو أنصفنا لعدَدْنا

---

(١) الحيوان ، للجاحظ (٣/ ٥-٦).

مؤلفى الروايات المضحكة، والنكت والنوادر البارعة أطباء يداوون النفوس، ويعالجون الأرواح ويزيحون عنا آلامًا أكثر مما يفعل أطباء الجسوم».

فالضحك - على هذا - بلسم الهموم ، ومرهم الأحزان، وله طريقة عجيبة فى أنه يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال، ويحط عنك الصعاب، ويفك منك الأغلال ، ولو إلى حين.

ولقد كان من مظاهر حضارتنا العربية الإسلامية أن نجد فيها نواحى المضحكات ملائمة لاختلاف الطبقات، فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم، ولعامة الشعب مثل ذلك ، وللخاصة ولذوى العقول الراقية المثقفة أنديتهم ومضحكاتهم. كل ذلك وفق المنهج الذى رسمه الإسلام الحنيف الذى حَقَّقَ التوازن بين جوانب الإنسان المختلفة، فإذا كان الإسلام قد رفض الإفراط فى كمية العبادات الشرعية التى جاء آمرًا بنوعها أمر وجوب أو استحباب إذا خرجت عن الحد المألوف المستطاع، فإنه كذلك لم يجعل الحياة كلها ضحكًا، بل الأمر كما قال الرسول ﷺ : «ساعة وساعة»[1] .

ولقد وجد فى حضارتنا عبر عصورها أبطال فى مجال النادرة والفكاهة كانت لهم بصمات على واقع الحياة بدءًا من «نعيمان» مضحك الرسول ﷺ إلى عصر الناس هذا ، بل وسيكون لهذه الطائفة وجود إلى نهاية الحياة ، وأعنى بهؤلاء جميعًا أولئك الذين ساروا وفق الضوابط المباحة والتى لم تخرج عن الحد المشروع وهم - بحمد الله - أكثر من أن يحصيهم العادون.

ولقد أخرج لنا القرن الماضى نماذج من هؤلاء الأفذاذ الذين كانت لهم بصمات على واقع الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى مصرنا الغالية، فنقدوا المجتمع وكشفوا عن مفاسده بصورة أدبية ساخرة راقية ، وكان من بين هؤلاء الأدباء، حافظ إبراهيم، وبيرم

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه البخارى.

التونسى، وإمام العبد، وحسين شفيق المصرى، ومحجوب ثابت، والأديب الأريب البارع الشيخ عبد العزيز البشرى، وغيرهم كثير.

والكتاب الذى نقدم له واحد من أبرز الدراسات التى نقدت المجتمع بصورة ساخرة رائعة هو كتاب «المرآة» الذى كان فى أصله مجموعة مقالات كتبها الأديب العالم الشيخ عبد العزيز البشرى جاحظ العصر الحديث ثم أشار عليه محبوه أن يجمعها فى كتاب لتكون درة فى عالم الأدب الساخر الهادف.

إن الشيخ البشرى واحد من فرسان النقد البناء بل هو عَلامَةُ هذا الفن، وأستاذ جيل كامل فى علم السخرية الهادفة.

وسوف أتناول فى هذه المقدمة بعضًا من حياة أديبنا الكبير، ثم أتحَدَّث عن بعض جوانب العظمة فى أدبه، وأثره فيمن تتلمذ عليه، وأختم بذكر بعض نكاته ونوادره لأدعك تعيش بعد ذلك مع أسلوبه العملاق فى كتابه «المرآة» سائلاً الله التوفيق والرشاد.

عادل عبد المنعم أبو العباس

حياة البشرى

فى بيت من أعز البيوتات، وفى بيئة مصرية محافِظَة، وفى مكان يفد إليه أرباب العلم ورجال الفقه والأدب، ولد الشيخ عبد العزيز البشرى سنة ١٨٨٦ م ، ولد فى أسرة لها باع طويل فى الثقافة والدين.

فأبوه الشيخ الجليل «سليم البشرى» العالم المالكى الكبير الذى آلت إليه مشيخة الأزهر الشريف مرتين فى حياته الوظيفية، مما يدل على مدى تفقهه فى الدين وإلمامه بأحكام الشريعة الإسلامية الغراء.

ولد البشرى فى هذا البيت المبارك، ولما شبَّ عن الطوق التحق بكتَّاب فى أحد أحياء القاهرة، وحفظ القرآن الكريم وبعض المعارف التى أهلته للالتحاق بالأزهر، والأزهر إذْذَاك منارة العلم وكعبة الثقافة، ومن ثمَّ كان مقصد الطلاب فى مشارق الأرض ومغاربها.

وفى الأزهر الشريف ألم عبد العزيز البشرى بألوان مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى الفقه والتفسير والحديث والعلوم المدنية التى درسها فى ذلك الوقت، بيد أن عبد العزيز كان يحس نحو الأدب بعاطفة جارفة لا يستطيع منها خلاصًا، ولا عنها انصرافًا، فعكف على قراءة دواوين الشعراء لا سيما وأن والده شيخ الأزهر كان يعجب أشد الإعجاب بشوقى أمير الشعراء، كما كانت كتب الجاحظ من أحب الكتب إلى نفس عبد العزيز، ساعده على ذلك مكتبة والده الضخمة التى تضم ذخائر نفيسة من الأدب العربى ودواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام.

وعلى كلٍّ فما زال «البشرى» ينهل من هذه العلوم ، ويرقى فى معارج

الدراسة عامًا بعد عام حتى نال الشهادة العالية سنة ١٩١١م، بل كان من أوائل الخريجين.

وقد عُيِّن سكرتيرًا بوزارة الأوقاف خلفًا للأديب الكبير «مصطفى لطفى المنفلوطى» الذى نُقل إلى وزارة الحقانية، ثم انتقل إلى سكرتارية وزارة المعارف، ولم يلبث الشيخ البشرى بها إلا قليلاً حتى نُقل إلى القضاء الشرعى وظلَّ يتنقَّل بين المحاكم الشرعية حتى عين وكيلاً للمطبوعات ، ثم مراقبًا عامًا لمجمع اللغة العربية، وهو المنصب المرموق الذى طالما تاقت إليه نفسه، وظل به إلى ما بعد سن التقاعد.

تلك صورة موجزة عن حياة الشيخ البشرى على وجه العموم، وفى هذه المراحل المختلفة عرفت الجماهير البشرى الأديب، والناقد، والساخر، والعالم ، والكاتب.

ثقافته الإسلامية:

لقد تنوعت مناحى البشرى الثقافية، فكتب فى الدراسات الإسلامية ، وكان القرآن الكريم محور دراساته، قرأه بوعى، ودرسه دون تعصب بغيض، لأنه كان مسلمًا غيورًا على الإسلام حريصًا على إظهار عظمته ، وصفوة القول: أن ثقافة «البشرى» الإسلامية كانت مستمدة من الكتاب والسنة، مدعومة بحقائق التاريخ الإسلامى، وكان فيها دائمًا فصل الخطاب، وحسبها أنها لا تعرف التعصب ، وتقدر حرية الفكر ، وتنشد الإخاء والمساواة، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى.

ثقافته الأدبية:

أما الجانب الأدبى فى ثقافة البشرى فقد طغى على كل الجوانب، فكان أديبًا بكل ما تحمله الكلمة من معان، حتى إنه تمت له ملكة النقد واستطاع أن يشارك فى هذا المجال، فقال رأيه فى «البحترى» و«أبى تمام» و«المتنبى» الذى اعتبره أفحل الشعراء، وأفضل من حذقوا لغة العرب وألموا بغريبها.

كما فصَّل القول فى شعراء عصره وأدبائهِ فأشار إلى أن «شوقى» أشعرهم بلا منازع، وأن «حافظ إبراهيم» هو شاعر النيل الذى اتصل شعره بمائه وامتزج بواديه. كما كان البشرى ناقدًا اجتماعيًا من الطراز الأول، نقد سلبيات المجتمع المصرى، وشهر قلمه مدافعًا عن حقوق الفلاح، وعن الطفولة المشردة، وتحدث عن معركة «العمامة ، والطربوش» وكان له رأى فيها رغم أنه ظلَّ مرتديًا لها حتى نهاية حياته .

فكتب فى مجلة «السياسة» وغيرها ، ولعلَّ أطرف ما تندر به فى هذا المقام أنه كان يصحبُ كريمتيه ذات يوم فى نزهة ، وكانتا ترتديان «القبعة» فشاهدهما أحد أولاد البلد فقال لزميله : «شوف الشيخ ملبس ولاده البرانيط» فسمعه البشرى فقال : «أمَّالْ عايزنى ألبسهم عِمَمْ».

الأدب الساخر:

ولقد نجح البشرى نجاحًا منقطع النظير، وتفوق على كل من سبقه فى الأدب الساخر ومعروف أن السخرية قديمة قدم الإنسان، لأنها قد تكون ترويحًا عن النفس، أو تسرية عن القلب، أو استنكارًا لما يقع، أو هزءًا وتندرًا بالخصم كما جاء فى قصة نوح عليه السلام حين أُمِرَ بصنع السفينة، هزأ به قومه وضحكوا قائلين : يا نوح قد كنت بالأمس نبيًا وأصبحت اليوم نجارًا!!.

فكان جوابه ما حكته الآية الكريمة : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨] إن السخرية إذا قُصِدَ بها الاحتقار والاستصغار لغير سبب ظاهر، فهى منهى عنها بنص القرآن: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات:١١] فإذا كان المسخور منه بليد الخاطر لا يتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النهى فى هذه الحالة لا يتناوله، بل يكون تحقيره ضربًا من المزاح الذى أحله الله.

والسخريات التى ملئت بها كتب الأدب العربى كانت من هذا القبيل لأنها تناولت الغفلة والتغافل، والتلاعب، بالألفاظ ، والتهكم الاجتماعى.

ومن عجب أن أكثر أدباء السخرية الذين تفوقوا فى هذا الجانب كانوا من أكثر الناس تشوهًا فى الجانب الجِسْمى والخَلْقِى.

أجسام أدباء السخرية:

يروى لنا التاريخ الكثير عمن سلبوا صباحة الوجه، وجمال الخِلْقَة، ولكنهم عُرِفوا بالروح الفكهة، والطبيعة الساخرة المرحة:

فشيخ فلاسفة الإغريق «سقراط» كان «قبيح المنظر، فهو قصير ، بدين ، دميم، بارز العينين، كبير الأنف فى قبح، واسع الفم، بالى الثياب، ضخم الشفتين وكان التهكم من جملة أساليبه فى تقرير فلسفته [1].

والجاحظ كان قصير القامة، صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذنين[2]، أسود اللون، جاحظ العينين، مشوه الخلقة، قال فيه أحمد بن سلامة:

لوْ يُمْسَخُ الخنزيرُ مسخًا ثانيًا ... ما كانَ دونَ قُبْحِ الجاحِظِ
رجلٌ ينوبُ عن الجحيم بوجههِ ... وَهُوَ القذى فى كل طرفٍ لاحظِ

بل إن الجاحظ نفسَهُ يروى عن نفسِهِ ويقول : «ما أخجلنى أحَدٌ مثل امرأتين: رأيتُ إحداهما فى المعسكر، وكانت طويلة ، وكنت على طعام، فأردتُ أن أمازحها فقلت لها: انْزِلى كُلى مَعَنَا. فقالت: اصْعَدْ أنْتَ حتى ترى الدنيا.

(١) انظر قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين (صـ١١٠).
(٢) الجاحظ ، جورج غريب (صـ٢٠).

وأما الأخرى، فإنها أتتنى وأنا على باب دارى، فقالت: لى إليكَ حاجةً، وأريد أن تمشى معى ، فَقُمتُ معها إلى أن أتت بى إلى «صائغ» يهودى، فقالت له : مثل هذا ، وانصرفَتْ.

فسألتُ الصائغ عن قولها ، فقال : إنها أتَتْ إلىَّ بفَصٍّ من ذهب وأمرتنى أن أنقش عليها صورة شيطان، فقلتُ: يا ستِّى ، ما رأيتُ الشيطان، فأتتْ بكَ وقالت ما سمعتَ».

وكذلك كان «رابليه» و «موليير» و«ڤولتير» وهم أشهر من نبغ فى الأدب الساخر فى فرنسا ، وملأت مؤلفاتهم الساخرة الآفاق.

يقول الأستاذ العقاد عن «ڤولتير» : إنه كان مشهورًا بضآلته وهزاله، ورجفانه من فرط العصبية لأقل هياج يعتريه، وكان مولعًا بالهجاء اللاذع، والسخر المؤلم [1].

وإمام العبد المضروب به المثل فى الدعابة والسخرية ، كان «زنجيًا» بمعنى الكلمة لولا فصاحة لسانه، ولولا أنه ولد وعاش فى مصر، فَفُطِرَ على أخلاق أهلها، وأخذ بعاداتهم، وسائر أسبابهم، فقد كان «أفطس الأنف، مُحْمَرَّ الحدقتين، مفَلفَل شعر الرأس، أما لون جلدِهِ فأشد من فحمةِ الدُّجَى سوادًا» [2].

وهكذا كان أديبنا الساخر الكبير عبد العزيز البشرى: «كان طويل القامة، نحيف العود، محنىَّ الظهر ، قمحى اللون، ولم يكن حُلْوَ التقاسيم ، جميل الملامح، إنما كانت ملامحه لا يتسق بعضها مع بعض، وكانت عيْنَاهُ دائمًا حمراوين، تنفثان اللهب، أما أسنانه ، فكانت منفرجة غير منتظمة، وكانت شفتاهُ عريضتين تتلمظان الطعام، وكان شعرهُ مُتَنَاثرًا كثًا، أما شعر حاجبيه فكان مبعثرًا، حتى لا تستَطيع إن تجمع شعرةً على شعرةٍ، وكان أفْوَهَ الثغر، إذا ضحك انفرج وجهه عن ثغر باسم واسع ، وقهقهةٍ عالية، ولم يكن أنيقًا فى ملبسِهِ» [3].

---

(١) انظر ساعات بين الكتب ، للعقاد (صـ ٣٦٨).

(٢) المختار ، للبشرى (٢/١٢٠).

(٣) أعلام العرب ، عبد العزيز البشرى ، جمال الدين الرمادى (صـ١٠ ، ١١).

شيخ أدباء السخرية وتلاميذه

يعد «الجاحظ» علمًا من أعلام الأدب الساخر، بل يمكن القول بأنه مؤسس أدب السخرية بالمعنى العلمى، ذلك أن السخرية قبل «الجاحظ» كانت تأتى عفوية تارة، ومقصودة لغرض من الأغراض السياسية تارة أخرى دون أن تقوم بالتفاصيل النابضة بالحياة تحليلاً، وتصويرًا، وتشخيصًا، واستبطانًا لدخائل النفوس، وإبرازًا لخصائص المجتمع، لم تقم بالتحليل النفسى الدقيق، الذى ينم عن عمق التجربة أو يعتمد على دقة الملاحظة إلا نادرًا.

ولم يؤلَّف فى السخرية - قبل الجاحظ- كتاب يورِدُ نوادر المجتمع، ويتسلسل فى أعماقه ليظهر دخائله، بنزعة فنية خالصة، باستثناء «المدائنى» فى كتابه «الأكلة» الذى كان إخباريًا فى نوادره، وأبى عبيدة فى كتابه «لصوص العرب».

من هنا كان الجاحظ أول مؤرخ فى تاريخ الأدب يخص كتبًا بأكملها فى «أدب السخرية» تحليلاً ودراسة كما فعل فى كتابه «البخلاء» ورسالته فى «التربيع والتدوير» والذى كان دقيقًا فى تصويره، بارعًا فى وصفه، ساخرًا مع الشخصية التى اختارها، داعيًا إلى الضحك والمزاح، وقد نجح «الجاحظ» بحق فى هذا الأدب وامتدت آثاره الفريدة مع الزمن فى ميدان «الأدب الساخر» حتى وصلت إلى العصر الذى نعيش فيه، وكان له - ومازال- عشاق ، ينهلون من مورده، وينْسجون على منواله، ويرتشفون من رحيق فنِّه الساخر الفياض، الذى يخلط فيه الجد بالهزل، ترويحًا عن النفس بما كان يدمجه فى كتبه من الطرف ، والفكاهات والنوادر، والأقوال المستظرفة.

ونستطيع أن نرى أثر السخرية الجاحظية واضحًا فى أدب كثير من الكتَّاب منذ عصر الجاحظ وحتى يومنا هذا، ومن هؤلاء الكتاب الإمام ابن

قتيبة صاحب «مشكل القرآن» و«تأويل مختلف الحديث» ، والذى تأثر بالجاحظ فى أدب السخرية [١] والذى يقول فى مقدمة كتابه «عيون الأخبار» :

«... وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والمفاكهة، وما روىَ عن الأشراف والأئمة فيها، فإذا مرَّ بك - أيها المُتزَمِّتُ- حديث تستخفهُ أو تستحسنه ، أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهبَ فيه وما أردنا به،واعلم أنك - إن كنتَ مستغنيًا عنه بنسُكِكَ - فإن غيرك، ممن يرخص فيما تشددتَ فيه، محتاج إليه، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك ، فيهيأ على ظاهر محبتك، ولو وقعَ فيه توقىِّ المتزمتين لذهبَ شعر بهائه، وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحْبَبْنا أن يقبل إليه معك» [٢].

ويستخدم ابن قتيبة أسلوب «الجاحظ» فى وصف العورات متأثرًا به فيقول: «وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة، تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين، وإذا مرَّ بك حديث فيه إفضاحٌ بذكر عورة أو فرْج أو وصف فاحشة. فلا يحملنَّكَ الخشوع أو التخاشع على أن تَصَعِّرَ خدك، وتعرض وجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثر، وإنما المآثِمُ فى شتم الأعراض ، وقول الزور، والكذب، وأكل لحوم الناس بالغيب».

وتواصل التأثر بأدب السخرية الجاحظية على مرَّ الزمان، فقد سار على نهجه «ابن عبدربه» فى العقد الفريد، و«أبو حيان التوحيدى» ، و«النويرى» ، و«أبو على القالى» ، و«الوشاء» ، و«الحسن التنوخى» ، و«الخطيب البغدادي»، و«ابن الجوزى» ، و«ابن زيدون» و«يوسف الشربيني» و«إبراهيم عبد القادر المازني» و«عبدالعزيز البشرى» ، و«العقاد» ، و«طه حسين» ، ومصطفى صادق الرافعى» ، و«توفيق الحكيم» ، و«أحمد حسن الزيات» .. وغيرهم كثير.

---

(١) انظر السخرية فى أدب الجاحظ (صـ٦٥).

(٢) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، المقدمة (س - ل).

obeikandl.com

البشرى جاحظ العصر الحديث

والذى يهمنا فى هؤلاء هو عبد العزيز البشرى الذى أطلق عليه «جاحظ العصر الحديث» لقد جارَى «الجاحظ» فى أسلوبه وسخرياته، وبارع نكتته ، وخفة روحه، وعذوبة حديثه، ومزجه الجدَّ بالهزل، ولقد حاكاه فى براعة وصفه، ودقة تصويره ، فرسم ببيانه الساخر - فى «المرآة» - زيور باشا - السمين البدين، كما رسم «الجاحظ» معاصره «أحمد بن عبد الوهاب» فى رسالة «التربيع والتدوير» وكان رسم - البشرى- لزيور باشا فى صورة تهكمية لاذعة، لا تجود بها كل قريحة ولا تقوى عليها كل موهبة، وأنت حينما تقرأ الصورة الأدبية الساخرة داخل «المرآة» عن زيور باشا، وغيره فإنك ستلاحظ أن البشرى شوَّه صاحبه ، وشوه خلقه، واستعان فى هذا بفن الرسوم الساخرة ، فأبدع وأوجع، وترك الناس حوله يضحكون ويعجبون!

لقد اصطنع الجاحظ وترسَّم خطاه.. على أن «الجاحظ» فى رسمه «لأحمد بن عبد الوهاب» لم يقف عند حدٍّ تشويه الخلقة وتقبيح الظاهر، بل شوه أيضًا عقل غريمه وجَرَّدهُ من العلم والأدب إذ جعله «لا يعرف من الكتب إلا أسماءها ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب».

وبالمقارنة بين «زيور» البشرى، وابن عبد الوهاب، الجاحظى ندرك أن البشرى يسير فعلاً على « خُطا» الجاحظ فى هزئه، وسخره، محاكيًا إياه فى طريقته وفنِّه ، محاولاً إحياء مدرسته فى الأدب الحديث.

بل إن الشيخ البشرى تفوق على كل من تأثر بالجاحظ من السابقين مما جعل بعض المهتمين بالدراسات الأدبية يقول:

obeikandl.com

قد لا نعلم أحدًا من كُتاب العربية - فى تاريخها الطويل جارى الجاحظ فى أسلوبه «الكاريكاتورى» مثل عبد العزيز البشرى.

بل أن الشيخ البشرى نفسه يقول : «أقدِّر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثره وأرتضى صحبته، وأَفَاخِرُ بها، وأحرصُ عليها ، لقد عرفتُه منذ أمدٍ بعيد، عرفْتُه من الساعةِ التى أدركتُ فيها أثرًا للقراءة القائمة على الدرس والتحقيق، وكلما زادت قراءتى له ، استوعبتُ فيه ألوانًا جديدة من الروعة والجلال والامتاع. إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية، جودة وأناقة ورشاقة وجمال توقيع، وهو الأسلوب الجزل السهل الذى ينشده لنفسه كل كاتب يريد الكمال لقلمه والإبداع فى انتاجه، وإن الجانب الفكاهى فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم كلما أرادَ أن يسخر ، وكلما شاء أن تحزَّ نقداته فى القلوب، ولستُ أعلمُ أن هناك كاتبًا قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر وأن يكشف السوءات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يعلم الناس مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه» .

مع المرآة في أدب السخرية

يضم كتابُ «المرآةِ» طائفة من «مراياه» العديدة التى كان ينشرها فى «السياسة الأسبوعية» وقد انعكست على صفحة هذه «المرايا» صور لشخصيات مختلفة منها من هو سياسى كـ «زيور باشا» و«عدلى يكن» ، ومنها من هو أديب أريب كـ «حافظ إبراهيم» و«أحمد شوقى» ومنها من هو فنان كالمثَّال «محمود مختار» ، ومنها من هو جامعى كـ «أحمد لطفى السيد» بل منها من هو اجتماعى كـ «محجوب ثابت» و«هدى شعراوي» وغيرهم.

وقد تناول «البشرى» هذه الشخصيات بالتحليل والتصوير بأسلوبه «الكاريكاتورى» الفريد فى بابه ، الجاد أحيانًا ، والساخر أحيانًا، ذلك الأسلوب المرح الذى أصبح علمًا عليه وبه يُعرَف.

والواقع أن هذا الكتاب - المرآة - طريف فى بابه وغايته وأهدافه.

وقد أشار البشرى فى التمهيد إلى أن الغاية التى تذهبُ إليها المرآة هو تحليل شخصية من تجلوه من الناس، والتسلسل إلى مداخل طبعه ، ومعالجة ما فسد منِ خلاله ، ونفضُ هذا على القارئ فى صورة فكهة مُستَملحة.

كما أفصح عن خُطَّته فى تصوير هذه الشخصيات بقوله : «إن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور «الكاريكاتورى» ، فهو إنما يعمدُ إلى الموضع الناتئ من خلال المرءِ فيزيد فى وصفه، ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات .. وفى تفصيل ذلك يقول البشرى : «إن مردَّ النكتة إلى خلل فى القياس المنطقى بإهدار إحدى مقدماته أو تزييفها أو بوصلها بما لا تتصل به فى حكم المنطق السليم ، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدى إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس، وهذا هو الذى يبعث العجب، ويثير الضحك والطرب، فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع.

obeikandl.com

ومن ذلك ما ذكره عن الشاعر «حافظ إبراهيم» من أن صديقًا له لقيهُ مرةً فى الطريق وهو منقبض النفس، فسأله صاحبه عما به، فقال له : «إنَّ المصران الأعور عندى مُلْتَهِب» فقال له : وبماذا تَشْعُر؟.

فقال: أشعر بوجع شديد هنا، وأشار بيده إلى جنبه الأيسر.

فقال صاحبه: إن المصران الأعور فى الجنب الأيمن لا الأيسر.

فأجابه حافظ من فوره: «يمكن يكون أنا يا سيدى أعور شمال».

وتناول الشيخ البشرى فى «المرآة» - على سبيل المثال- شخصية الدكتور «على إبراهيم» وهو من أبرع جراحى القرن العشرين ، وصور براعته فى فن الجراحة تصويرًا صادقًا وتناوله بالتحليل والتعليل والتفصيل فقال: «إنك تستطيع أن تلحظ أن لهذا الرجل أصابع ليست من جنس أصابع سائر الناس، فإنها تشير عليك بطولها وسراحتها وانسجام خَلْقها ، على أنه إذا تحدث رأيته يستعين دائمًا بسبابته ووسطاه، فما تزالان كالمقص فى انفراج والتئام إلى أن يفرغ من حديثه حتى إنكَ لتعرفه من أصابعه كما تعرفه من وجهه ولو قُدِّر لمصوِّرٍ أن يرسم أصابعه وحدها لدلَّت عليه إلى غاية الزمان.

ويصور عبد العزيز البشرى صدق هذا الطبيب وعدم جشعه ، وعدم تعديه على تخصص غيره، فروى أن رجلاً من كبار الأغنياء قدِمَ إليه يشكو علَّةً لا تتصلُ بالجراحة.

فقال له الدكتور: يا عم لا شأن لى بمرضك، فاذهب إلى الدكتور فلان أو الدكتور فلان أو الدكتور فلان فهم الذين يحسنون تشخيص علتكَ ويقدرون على علاجك.

فقال الرجل: أنا قصدتك أنت، ولستُ أرضى أحدًا يداوينى غيرك ، وجئت معى بكذا وكذا من الأموال فَخُذْ منى - على أن تعالجنى - ما تشاء.

فقال له الدكتور : وأنت إذا أعطيتنى ما تشاء فلن أداوى علتك، لأنها ليست من عملى ولا تتصل بتخصصى، إنما أنا رجل جراح.

فألحَّ عليه الرجل وتضرع إليه بكل أنواع التضرع، فلما أعياه أمره قال له: اسمع يا عم:

لو تلِفْ «كالون» بيتك هل تجىء له بنجّار ولا كوالينى.

فقال له: بل بالكوالينى.

فقال له الدكتور: مرضك هذا أنا لا أعرفُ فيه.

فقال الرجل: امَّال أنت شغلتك إيه ؟

فقال الدكتور على إبراهيم: أنا أفتح لك كِرْشك ، أكسر لك رِجْلَكَ، أقطع لك رقبتك، وهذا الذى أعرفه.

فانصرف الرجل مقتنعًا راضيًا.

هكذا صور البشرى صنيع هذا الجراح المتمكن الذى لا يجرى وراء الثروة، ولا يطمع فى الغنى قدر ما يهدف إلى خدمة الطب، والعناية بالمرضى، وتخفيف البلاء عنهم فالبشرى لا يروى هذه القصة اعتباطًا إنما يهدف من ورائها إلى غاية بعيدة، هى أن على إبراهيم - رغم تمكنه - لم يكن جشعًا، ولم يكن يسر من كثرة ورود المرضى المحتاجين للعمليات الجراحية أو غيرها، وإنما كان يحترم تخصصه وفنه.

ويمضى البشرى محللاً للشخصيات التى أختارها فى «المرآة» فيلقى الضوء على أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد» مصورًا إعجاب الشباب به فى صورة «كاريكاتورية» ضاحكة، ليصل من خلال ذلك إلى الهدف المرجو من أدبه الساخر. ويعتبر تحليل البشرى لأمير الشعراء «أحمد شوقى» وشاعر النيل «حافظ إبراهيم» من أروع التحليلات الأدبية التى سطرتها الأقلام، صورهما بصورة ساخرة صادقة سخرية لجأ إليها من باب المدح الذى يشبه الذَّم على نحو ما يقول البلغاء الأقدمون، أو هى من باب التخفيف بعد التقريع على نحو ما يقول بعض الأدباء المحدثين.

وهكذا كان تصوير البشرى وتحليلاته لجميع الأشخاص الذين وقع عليهم الاختيار فى المرآة» كسعد زغلول ، وطلعت حرب، وأبو الفضل الجيزاوى، وإسماعيل سرى ، ومحمد محمود، وإسماعيل صدقى ، وغيرهم.

المقلدون للبشرى فى الأدب الساخر

قلتُ إنَّ البشرى تتلمذ على أدب الجاحظ، وتفوق فى رسم الشخصيات ونقد المجتمع على كل السابقين حتى أطلق عليه المنصفون «جاحظ العصر الحديث» ، ولاشك أنه وُجِدَ فى حياة البشرى من تأثر بأسلوبه، وحذا حذوه، وسار على طريقته، وتتلمذ على أدبه، وقد فتح لهم البشرى فتحًا جديدًا فى الأدب الساخر، وعلمهم من خلال كتاباته هذا الأسلوب التحليلى الكاريكاتورى فإذا كان هو قد حَلَّلَ وصوَّر وأبدع فى مجلة «السياسة الأسبوعية» هذا النوع من الأدب، فإن مجلة «الكشكول» قد اقتفت الأثر، وقام محرروها بتقليد الشيخ البشرى على صفحاتها، وكان يكتب فيها أشخاص كثيرون كالأديب الألمعى الساخر «حسين شفيق المصرى» والأستاذ «الهيهاوى» والأستاذ «محمد هلال» .. كما تأثر بهذا الفن، وكتب فى بعض «مراياه» الأستاذ «فكرى أباظة» ، والأستاذ «توفيق فرغلى» والأستاذ «حسين درويش» وغيرهم.

وكانت المعارك الأدبية بين «السياسة» و«الكشكول» فى غاية الطرافة تُسْتخدم فيها الدعابة الحلوة ، والنكتة الرشيقة، والعبارة الأنيقة، والمثل العامى الطريف مما يدل على أن هذا الجيل كان بطلاً فى كل شىء بكل ما تعنيه الكلمة .

من نكات ونوادر الشيخ البشرى

لم تخل مجالس الأدب فى هذا العصر الجميل، وذلك الجيل الأصيل من النوادر والقفشات التى كان يطلقها أولئك الأدباء ، وعلى رأسهم الأديب الفارس الساخر الشيخ البشرى فقد كانت نكاته هادفة، ونوادره تتناقلها الصحف والمجلات، ويبدو أنها لازمته من حداثه سنه، واستمرت معه حتى نهاية حياته ، وسوف أضع بين يديك جملة من نوادره لتعلم أنه بحق جاحظ العصر وأديبه الساخر المحبوب.

● روى البشرى هذه الرواية عن نفسه قال:

كنتُ طالبًا فى الجامع الأزهر، وقد ذهبت يومًا إلى بائع «سلطة وطعمية» لأشترى طعام غدائى، ولم يكن معى غير خمس مليمات وهى لا تكفى إلا لشراء رغيف من الخبز.

وعزَّ علىَّ أن آكل الرغيف دون إدام، فقصدت البائع وأعطيتُهُ المليمات الخمس وقلت له :

- اعطنى رغيف خبز.

ومدَّ الرجلُ يده بالرغيف، ومددت يدى لأتناوله إلا أننى تعمدت أن أفلته من يدى فسقط الرغيف فى وعاء مكشوف فيه سلطة طحينة.

وأراد البائع أن يبدله بغيره ولكنى قلت له:

- معلش .. معلش أكله كده.. أكله كده.

وهكذا فزت بغموس بدون ثمن.

● مع التُربيَّة:

ومن نكات البشرى حول «اللحادين» أنه كان يمر كل يوم على حانوت، والعياذ بالله، أثناء خروجه من منزله، وكان هذا الحانوت يعرض خشب الموتى ودكة الغسل فى عرض جذاب، كما يضع نماذج للأكفان الزاهية الألوان من (شاهى) الرجال (وكريب جورجيت) لموتى العرائس.

وجاز البشرى بهذا الحانوت ذات يوم وعيناه تنضحان بالدمع من أثر رمد، فسر أصحاب هذا الحانوت سرورًا عظيمًا ورأى البشرى البشر يشيع فى وجوههم وسرعان ما تحركوا جذلين للقائه وهم يدعون الله فى أنفسهم أن يجعل «استفتاحه لبن» .

فصاح فيهم: استريحوا يا أولاد.. فما بى والله بكاء.. ولكنه الرمد وكلنا والحمد لله بخير وعافية وقطع لله أرزاقكم، ولا أدخل النعمة عليكم أبدًا.

● **الله يحفظك :**

ومن نكات البشرى أن لحادًا لقيه فى الترام فسلم عليه ، وأقبل عليه يحييه، وكان البشرى على معرفة يسيرة به، وسأله البشرى بما جرت به عادة الناس عن شأنه فقال له وهو يرد التحية فى لهجة تشف عن الصدق والإخلاص (أنا فى الخدمة). فقال له : الله يحفظك.

فأجاب اللحاد من فوره كذلك فى إخلاص ولهفة: «ربنا ما يحرمنا منك».

● **زُكام الزرافة:**

وذهب الشيخ عبد العزيز ذات يوم إلى حدائق الحيوانات وفى صحبته ابنه الصغير وما أن رأى الطفل الزرافة حتى صاح قائلاً:

ماما قالت لى إنّ اللى رجليه فى المية ياخد زكام أمال الزرافة رجليها فى المية وما عندهاش زكام ليه؟

أصل رقبتها طويلة قوى وعلى بال الزكام ما يوصل لمناخيرها لازم يفوت شهر أو شهرين.

● **لمَّع راسك:**

وحدث أن كتب الأديب الشاعر شوقى أمين المحرر بالمجمع اللغوى أبياتًا من الشعر عندما أدركه الصلع وهو لا يزال فى شرخ الشباب .

قال:

رضيت بالشيب تغزونى مواضحه

والسن لما تزل للهو أبانًا

ما بال شعرى قد جفت منابته

وارتد منجردًا ما كان فينانًا

أعددت للشيب صبغًا حين باكرنى

يا ليت شعرى ماذ أصبغ الآنا؟

فلما سمع الشيخ البشرى هذه الأبيات قال ضاحكًا للأستاذ شوقى أمين: حاجة بسيطة قوى؟ لمعها.

• **لضَّام سبَحْ:**

وحدث أن كان أحمد لطفى السيد يطلب من الشيخ البشرى مرات عدة أن يلضم له سبحته عندما تقطع.

وكان الشيخ البشرى يجرى هذه العملية فى إتقان تام.

وفى أحد الأيام طلب لطفى السيد عبد العزيز البشرى لأمر ضرورى عاجل بيد أنه لم يجبه فاستشاط غضبًا.

وعندما حضر البشرى بادره لطفى السيد قائلاً:

أنت كنت فين يا شيخ عبد العزيز أنت مش عارف إننا عايزينك؟

أنت عارف أنت بتشتغل إيه؟

فضحك البشرى وقال فى بساطة:

طبعًا عارف لضَّام سبح يعنى ح أكون أيه؟..

• **بين القاضى والفريق:**

ومما يروى عن الشيخ عبد العزيز كذلك أنه كان وهو قاض شرعى مجتمعًا فى مجلس مع المرحوم الفريق إبراهيم فتحى. وكان وزيرًا للحربية فى تلك الآونة.

فأراد الباشا الفريق أن يمزح مع الشيخ القاضى فقال له :

هل فى الحديث «قاضٍ فى الجنة وقاضيان فى النار»؟

فأجاب الشيخ عبد العزيز: نعم وفى القرآن الكريم.

«فريق فى الجنة وفريق فى السعير».

● لابِسْ عمّة ليه:

وكان البشرى يسير ذات يوم فى الطريق العام فاعترض سبيله أحد القرويين، وقدم إليه خطابًا ليقرأه، وقال له أنه رجل أمى يجهل القراءة والكتابة، وقد جاءه هذا الخطاب من بلده، وهو يتحرق شوقًا لمعرفة مضمونه.

وكان خط الخطاب رديئًا إلى أبعد حد حتى يصعب تفسير عباراته وحل طلاسمه ورموزه.

فلم يستطع عبد العزيز البشرى أن يقرأ سطرًا واحدًا من الخطاب ورده إلى القروى وهو يعتذر عن عدم استطاعته القراءة .

وهنا ثارت ثائرة القروى وقال فى ضيق:

امال شيخ إيه؟ ولابس عمة ليه؟

فأسرع عبد العزيز البشرى وخلع عمامته لتوه ووضعها في الحال فوق رأس القروى وقال له :

اقرا أنت يا سيدى أدى العمة على رأسك .

● مش عاوز أتعبكم:

وكان البشرى ذات عام يصطاف فى الأسكندرية، وقد قصد ذات يوم إلى جهة الشاطئ ليتناول الغداء.

ولما أراد المرور كان الزحام شديدًا والسيارات تملأ الطريق ذاهبة وراجعة فوقف البشرى بجوار نقطة الإسعاف ينتظر انتهاء سيل السيارات ليتمكن من المرور فى أمان دون أن يعرض نفسه لأخطارها.

ومـر الوقت دون أن ينقطع رتل السيارات، حـتى مـرت عشـرون دقـيقـة وأخيرًا التفت إليه أحد رجال الإسعاف وقال له:

ما تفوتْ يا سيدنا الشيخ.

فأجابه البشرى:

بس مش عايز أتعبكم.

- **مين اللى مسح وِشّه فى الجبّة:**

كما يروى البشـرى أنه كان مع لفيف من إخوانه يقضون أيامًا فى ضيعة وجيـه من أفراد الأسـرة الأباظية بمديرية الشرقيـة، فقـام الشيخ يتـوضأ وترك جبـتـه السـوداء مـعلقـة فلمـا عـاد وجد إخـوانـه قـد رسـمـوا عليـهـا بالطباشير وجه حمار نكاية فيه وشغفًا بالعبث به والسخرية منه.

فنظر إليـهم الشيخ فى ثبـات دون أن يفـقـد أعـصـابه وقـال والابتـسـام لا يفارق شفتيه:

مين فيكم اللى مسح وشه فى الجبة؟.

●●●

هذه جـوانب من مفـارقـات البشـرى ونكاته وهـى تدل على مقدار مـا اتسم به من روح فكهة ، ونفس مرحة، وإحساس فكاهى رفيع.

ولم تكن سخرياته تقط الأعناق، أو تقطع الرقاب، إنما كان يمزجها بروح المرح والدعابة مما يخفف من حدتها ويهون من شـدتهـا، ويجعلهـا أكثـر أثرًا فى النفوس وأعمق فعلاً فى القلوب.

كما كانت نكاته مزيجًا من البـلاغة والتفنن والذكاء اللمَّاح. والقدرة على التلاعب بالألفاظ والمعانى.

وهـى لا تتـحـدر إلـى هوة عـمـيـقـة من الإسـفـاف، أو إلى غـور عـمـيق من السـخـف، إنما تشـيع الطـرافـة فى أجـزائهـا، ويتـجلى الظرف فـى سـردها، وتتلاءم نتائجها مع مقدماتها.

وداع ورثاء للأديب الساخر

بعد هذه الرحلة الشيقة، والمرحة والفكهة التى عاشها أديبنا الكبير الشيخ «البشرى، والتى عالج من خلالها كثيرًا من قضايا المجتمع المصرى، ودون أن يخرج من لسانه قول فاحش أو لفظ بذىء، بل كان مثالاً للمسلم العفيف والتقى النقى، بعد هذه الرحلة ألم المرض بجسده فظل صابرًا على قضاء الله حتى اختاره لجواره سنة ١٩٤٣م، وكان لموته رنَّة أسف هزت مشاعر الشعراء والأدباء والكتَّاب والجمهور المحب لأدبه الساخر المقبول فنعاه محررو الصحف والمجلات فضلاً عن رئيس مجمع اللغة العربية، وكلهم أشادوا بفضله وأشاروا إلى أسلوبه الفكاهى الساخر وإلى ملحه وتهكمه المرير، فجاء فى نعى المرحوم محمد توفيق رفعت رئيس المجمع قوله:

«ودَّعنَا يوم الخميس الماضى المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى، مراقب المجمع، بعد أن ظلَّ قائمًا بعمله إلى اليوم الذى وافاهُ فيه الأجَل المحتوم، فكانت فجيعتنا فيه بالغة الآثَر فى نفوسنا، وإنَّا لنذكُرَ - رحمة الله عليه - صَادِقَ إخلاصِه فى القيام على تدبير أعمال المجمع طَوالَ السنين التى قضاها مراقبًا إداريًا له؛ فقد كان لا يفتأ يُوَالى عمله بما آتاه الله من كفاية ومقدرة، وبما كسب من خبرة وتجربة، يبعثه على ذلك إيمان وثيق بالأغراض التى من أجلها أنشئَ المجمع ورغبةٌ مشبوبة فى تيسير وسائله، بل لقد كانت العربية الصريحة، وغيرته على إنْهَاضِ الفصحى، تحدوانه على أن يُنافح عن المجمع بقلمه ولسانه كلما لاحت فرصة أو نجمتْ ناجمة.

ولا غَرْوَ أن يكون كذلك فقيدنا الشيخ عبد العزيز البشرى ، فقد عرفه العصر الحديث أدِيبًا فى الذروة من بين الأدباء البلغاء ، وكاتبًا مشرق الديباجة، رصين الأسلوب، يُعَدُّ حُجَّةً من حجج العربية، على استطاعتها أن تُواتى الأديبَ المتمكّن فى التعبير عن خوالج النفس وسوانح الفكر.

والحق أنَّ المصَاب فيه عظيم، وأنّ خسارتنا بفقدانه قَلَّ أن تُعَوَّض، على

أن عَزاءَنا فيه بما تركَ من ذخر أدبىٍّ مكتوب له البقاء ما بقيت ذخائر العربية فى عصورها المتطاولة ، بما تحفظ له فى قلوبنا من ذكريات طيبة هيهات أن يُسدل عليها ستار النسيان.. وإنَّا لَنَسألُ الله تعالى أن يكرمه فى دار مثواه ، وأنْ يُنزله منازلَ الذين أحسنوا عملاً..».

تلك هى الكلمة الهادئة المنصفة التى ألقاها السيد رئيس مجمع اللغة العربية فى أول جلسات المجمع بعد وفاته، ثم رُفِعَتْ الجلسة خمس دقائق حدادًا على الفقيد الكريم طيب الله ثراه(١).

أمَّا صحيفة الأهرام فقد كتبت فى عددها الصادر عقب الوفاة تقول:

«رُوِّعت مجامع الأدب بنعى كاتب منفرد، وأديب كان فى طليعة الأدباء، وهو المغفور له الشيخ عبد العزيز البشرى، فأحسَّ أهلُ هاتِه المجامع - لما بلغهم منعاه - فراغًا فى محيط الآداب العربية كان يملؤه الفقيد بلون من ألوان الأدب المشرق الديباجة ، الأخّاذ العبارة، الحلو الأسلوب، السّائغ التناول، فكان هذا الإحساس الصادق ، مضاعفًا للأسى والأسف فى النفوس جميعًا.

وقد عاش البشرى قريبًا من قلوب أصدقائه، حبيبًا إلى نفوسهم، إذ كان لطيف المعاشرة، صافى النفس، طاهر الدخيلة، رقيق الحسِّ حريصًا على ودِّ إخوانه وعارفيه.

وكان - رحمه الله - مشغوفًا بالأدب العربى منذ نشأته، فما زال متوفرًا عليه حتى تمكن منه وتضلَّع فيه، فأصبح من أعلامه القابضين على ناصيته.. وإن مؤلفاته وكتاباته وبحوثه وآثاره الأدبية التى خلّفها وراءه لأقْوَى برهان على مكانته الممتازة فى هذا المحيط..».

مع الشعراء:

أما الشعراء الذين فاضت بمراثيهم الصحف، فحسبنا هنا هذه المقتطفات مما جَادَتْ به قريحة الشاعريْن: خليل مطران، شاعر القطرين، والأستاذ محمد عبد الغنى حسن صديقه الحميم.

(١) أعلام العرب عبد العزيز البشرى ، جمال الدين الرمادى (صـ٣٥٥) عن مجلة مجمع اللغة العربية .

يقول مطران:

وارحمتا لى من صروف زمانى | أنَّى رَمَتْ رام السهام مكانى
إنّى لأسألُ، والرفاق تحمَّلُوا | أترى يطيل عذابى المَلَوَانِ (١)
من مبلغ السلوان مقروح الحشا | سدت عليه مسالك السلوان
مَنعاك يا عبد العزيز أمضَّنى | وأضاف أشجانًا إلى أشجانى
فاجأتني بالنأى قبل أوانه | هل حرقه كالنأى قبل أوان ؟
أتسوء إخوانًا ملكت قلوبهم | ظرفًا وكنت مسرَّةَ الإخوان
رَبَّ البيان وأنت بالغ شَأْوه | أعْجزت بالسَّبْق البديع بيانى
أدب يخالُ مطالعوا آياته | أن الكلام مثالث ومثانى (٢)

ونعاه صديقه الشاعر محمد عبد الغنى حسن فى مرثيته الدامعة بقوله:

جيلٌ مِنَ الأدبِ الرفيع تَوارَى | وهَزَارُ روْض فى البلاغةِ طارَا (٣)
قدْ كانَ ملْءَ الأرضِ صوتًا عاليًا | فى المشرقين، ومنطقًا مختارًا
يا (جاحِظَ) العصرِ الحديثِ ألا تَرى | ركنَ البيانِ يكادُ أن ينهارا ؟
يا مُسْكِرَ الألْبابِ مِنْ نفَحاتهِ | الناسُ فيكَ مِنَ المصَاب سُكارى
جاءَ الرفَاقُ المخلصونَ ليسْمُروا | لكنَّهم فَقَدُوا بكَ الأسْمَارا
مَنْ للنوادى الحافلات يُديرها | ويُدير فيها الشعرَ والأخبارا
مَنْ للفكَاهةِ وهىَ ضَاحِكةَ السِّنا | فتردُّ مُعْتَكرَ الظلام نهَارا
مَنْ للحديثِ الحُلو يقطرُ لؤلؤا | مِنْ فيض بحْرك أو يسيلُ نضارا
تلكَ السجايا مِنْ بقايا يعْرُب | ستظلُ بعدك - للشّدَاة - منارا

(١) الملوان: الليل والنهار.
(٢) أدب البشرى ، للرمادى (٩٦).
(٣) الهزار: طائر حسن الصوت.

مــا ضَــرّ أن نـزلت بـركــبـك علـة تطوى السنين وتنهب الأعــمــارا
أوَ مــا رأيتَ الدهرَ فى حَــالاتِهِ فَلَكًا بـأحْــداثِ الزمـــانِ مُـــدَارا؟

أمَّا أصدقاؤه وذَووهُ الذين عقدت الصدمة ألسنتهم ، فقد أرسلوها قطرات هامية حامية، وبكَوْه، لا بِفَيْض الشئون ودمعها الهَتُون، بل بماء الفؤاد وعصارة الأكباد.

وهكذا يكون الوداع لأولئك النفر الذين يقدمون لأمتهم الزاد العلمى ويخدمون الناس فى العلوم والآداب والمعارف، فرحم الله الأديب العالم الساخر النابه الشيخ عبد العزيز البشرى وأكرم مثواه.

عملى فى الكتاب

١- كتبتُ مقدمة بينت فيها حياة البشرى ومنهجه فى رسم شخصيات «المرآة».

٢- فسرتُ ما غمض من الكلمات موضحًا المعنى المراد.

٣- عَرَّفتُ بالأعلام الذين اختارهم فى «مرآته» بصورة موجزة.

٤- قَارنْتُ بين ما جاء فى «المرآة» وبين بعض ما كتبه مُحَرِّرُوا «الكشكول» وذكرتُ ذلك فى الهامش للدلالة على تأثر هؤلاء بالأديب البشرى.

٥- ذكرتُ بعضًا من مواقف من اختارهم البشرى فى المرآة دون إسهاب سائلاً الله - عز وعلا- أن يُعيدنا إلى رحاب أدبنا العربى العملاق، نأخذ منه ما يصلح لحياتنا، ونفقه من خلاله مكاننا ومكانتنا لندرك أننا أصحاب تراث خالد فى شتى مجالات الثقافة والعلوم، والله ولى التوفيق.

أبو هالة

عادل عبد المنعم أبو العباس

القاهرة - بنى مجدول

obeikandl.com

obeikandl.com

في المرآة

النص المحقق

للأديب الساخر الشيخ

عبد العزيز البشري

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء الكتاب

إلى هؤلاء السادة الذين بعثتُ القولَ فيهم: إنما استوحيت فى هذه «المرايا» خلالكم واستلهمت نزعات أنفسكم، فأنتم أحق الناس بأن تهدى إليهم، فمن أصابَ نفْسَه فى «مرآته» فأعجبته صورته فليوجه الحمد لله تعالى الذى سواه على هذا ، فليس لى من الأمر غير النقل والاحتذاء، والسلام عليكم ورحمة الله.

المخلص

محرّر المرآة

obeikandl.com